أحاديث إصلاح القلوب

(٣٢)

سوء الظن بالمسلم

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله؛ صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بعد:

روى البخاريُّ ومسلم في صحيحيهما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ «**إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ وَلَا تَحَسَّسُوا وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا تَنَافَسُوا وَلَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا**»(١).

إنَّ من المطالب العظيمة الَّتِي ينبغي على كلِّ مسلم أن يرعاها وأن يحافظ عليها؛ تقويةَ الأخوَّة الإيمانيَّة والرَّابطة الدِّينيَّة الَّتِي هي أعظم الرَّوابط وأوثق الصِّلات، والحذرَ من كلِّ ما يُضعِفها و يوهِّيها أو يخرمها ويهدمها، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات:١٠].

---

(١) رواه البخاريُّ (٤٨٤٩)، ومسلم (٢٥٦٣).

وثمَّة أمور حذَّر الشَّرع منها ونهى عنها تؤثِّر في هذه الأخوَّة تأثيرًا عظيمًا ضعفًا ووهاءً؛ ومن ذلك الظَّنُّ السَّيِّء يظنُّه المسلم بأخيه، قال ﷺ: «**إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ**» أي: حديث النَّفس لأنَّه من إلقاء الشَّيطان في نفس الإنسان، والمراد: النَّهي عن ظنِّ السُّوء. ونظيره ما جاء في القرآن الكريم بعد قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، قال عَزَّوَجَلَّ -في هذا السِّياق-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات:١٢].

إنَّ الظَّنَّ السَّيِّءَ الَّذِي يظنُّه المسلم بأخيه -وهو من آفات القلوب- يترتَّب عليه من الآثار العظيمة والأضرار الوخيمة في إضعاف هذه الأخوَّة، بل وفي إذهابها ما لا يعلم مداه إلَّا الله. والظَّنُّ السَّيِّء هو التُّهمة الَّتِي تقع في القلب بلا دليل ولا مستند إثر كلمةٍ يسمعها المرء من أخيه أو فعلٍ يراه من أفعاله؛ فيبني عليه ظنونًا وأوهامًا وتُهمًا باطلة يُبنى عليها عداواتٌ وقطيعةٌ وتناحرٌ وعِداء؛ فكم من علاقاتٍ زوجيَّة تهدَّمت، وكم من صحبة ورفقة تفكَّكت، وكم من إخاء ومودَّة تقطَّعت بسبب الظُّنون السَّيِّئة؛ ولهذا يجب على المسلم أن يحذر أشدَّ الحذر من الظَّنِّ السَّيِّء بأخيه، وهي التُّهمة والتَّخوُّن الَّذِي يقع في القلب، بل يلقيه الشَّيطان في القلب دون أن يكون له مستند.

والمسلم النَّاصح إذا بلغته الكلمة من أخيه وتواردت على ذهنه الظُّنون

والأوهامُ والتُّهم أبعدها وتلمَّس لأخيه العذر والمحامل الطَّيِّبة، قال عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**لَا تَظُنَّنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنْ مُسْلِمٍ شَرًّا، وَأَنْتَ تَجِدُ لَهَا فِي الْخَيْرِ مَحْمَلًا**»(١)، أي: التمس لها المحامل الطَّيِّبة؛ لتسْلَمَ وليسلَمَ منك أخاك، وإن لم يجد محملًا طيِّبًا قال: لعلَّ له عذرًا خفي عليَّ، كما قال محمَّد بن سيرين رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا بلغك عن أخيك شيء، فالتمس له عذرًا، فإن لم تجد له عذرًا، فقل: لعلَّ له عذرًا»(٢).

وأمَّا إذا دخل المرء في الظُّنون الواهية تُهمًا وتخوُّنًا وظنونًا فاسدةً؛ فإنَّه يضرُّ نفسه ضررًا عظيمًا، بل رُبَّما صارت حاله أسوء حالًا ممَّن ناصبه العِداء بسبب موقف ما أو خطأٍ. روى البخاريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في الأدب المفرد عن عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**مَا يَزَالُ الْمَسْرُوقُ مِنْهُ يَتَظَنَّى حَتَّى يَصِيرَ أَعْظَمَ مِنَ السَّارِقِ**»(٣)؛ «يتظنَّى» أي: يدخل في الظُّنون والأوهام، وهذه حال كثير من النَّاس إذا سُرق منه أو ارتُكب في حقِّه خطأٌ لا يدري مَن فعَله يدخل في الظُّنون: «أعتقد أنَّه فلان، بل إنَّه فلان، نعم لقد رأيت فلانًا في ذلك المكان»، ثمَّ يدخل في تُهم وغيبة ووقيعة ونميمة وآثام عظيمة، حتَّى إنَّ حاله لتصبح

---

(١) رواه المحامليُّ في الأمالي (٤٤٧)، وأبو الشَّيخ في التَّوبيخ والتَّنبيه (١٥١).

(٢) رواه أبو الشَّيخ في التَّوبيخ والتَّنبيه (١٠٠)، والبيهقيُّ في الشُّعب (٨٣٤٢).

(٣) رواه البخاريُّ في الأدب المفرد (١٢٨٩)، وصحَّحه الألبانيُّ.

أعظمَ إثمًا من إثم السَّارق. وقُل مثل ذلك في سائر الأخطاء والمخالفات. وعلى سبيل المثال: قد يصاب المرء بالعين فيتضرَّر إمَّا في بدنه أو في بعض ممتلكاته فيدخل في هذه الظُّنون والتُّهم: «إنَّه فلان، بل هو فلان، إنَّني أعرف من فلانٍ كذا»، ويخوض في أعراض إخوانه تُهمًا باطلة ودعاوى زائفة لا تقوم على دليل، غيبةً ونميمةً واستطالةً وأذًى عظيمًا؛ فتكون حاله أشدَّ حالًا من العائن الَّذِي حسده أو أصابه بالعين.

فعلى المسلم أن يريح نفسه في هذا الباب ويريح قلبه، وأن يحسن الظَّنَّ بإخوانه ويحمْل أخطاءهم أو أقوالهم على أحسن المحامل، كما يحب أن يُفعل معه لو كان هو صاحب ذلك القول أو الفعل. قال بكر بن عبدالله المزنِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إيَّاك من الكلام ما إن أصبتَ فيه لم تؤجر، وإن أخطأتَ فيه أثِمت؛ وهو سوء ظنِّك بأخيك المسلم»[(١)] أي: إن أصبت في سوء ظنِّك فيه وصار الأمر مطابقًا للواقع لم تؤجر على ذلك، فليس من وراء سوء الظَّنِّ فائدة، وإن لم تُصِب وكان الأمر مجرَّد تهمة بلا دليل فإنَّك تبوء بإثمٍ عظيم، ولاسيَّما إذا تبع هذا الظَّنَّ السَّيّء ما تبِعه من أمور وأعمال، وفي الغالب أنَّ الظَّنَّ يتبعه أمور كثيرة منها التَّجسُّس؛ إذا ظنَّ فيه السُّوء أخذ يتجسَّس عليه وعلى أفعاله، وإذا تجسَّس ترتَّب على ذلك وقيعةٌ وغيبةٌ ونحوُ ذلك، ولهذا

(١) رواه ابن سعد في الطَّبقات الكبرى (٧ / ٢١٠)، وأبو نعيم في الحلية (٢ / ٢٢٦).

لما نهى الله عَزَّوَجَلَّ عن الظَّنِّ السَّيِّء أتبع ذلك بالنَّهي عن التَّجسُّس، ثمَّ أتبعه بالنَّهي عن الغيبة؛ لأنَّها أمورٌ وشرور يتوالدُ بعضها من بعض، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحجرات:١٢].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول تعالى ناهيًا عباده المؤمنين عن كثير من الظَّنِّ، وهو التُّهمة والتَّخوُّن للأهل والأقارب والنَّاس في غير محلِّه؛ لأنَّ بعض ذلك يكون إثمًا محضًا، فليجتنب كثير منه احتياطًا»(١).

وقال الشَّيخ عبد الرَّحمن السِّعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نهى الله تعالى عن كثير من الظَّنِّ السُّوء بالمؤمنين، فـ ﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ وذلك، كالظَّنِّ الخالي من الحقيقة والقرينة، وكظنِّ السُّوء، الَّذِي يقترن به كثير من الأقوال، والأفعال المُحَرَّمة، فإنَّ بقاء ظنِّ السُّوء بالقلب، لا يقتصر صاحبه على مجرَّد ذلك، بل لا يزال به، حتَّى يقول ما لا ينبغي، ويفعل ما لا ينبغي، وفي ذلك أيضًا، إساءة الظَّنِّ بالمسلم، وبغضه، وعداوته المأمور بخلاف ذلك منه.

﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ أي: لا تفتِّشوا عن عورات المسلمين، ولا تتبعوها، واتركوا المسلم على حاله، واستعملوا التَّغافل عن أحواله الَّتِي إذا فُتِّشت،

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧/ ٣٧٧).

ظهر منها ما لا ينبغي.

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ والغيبة، كما قال النَّبِيُّ ﷺ: «**ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ وَلَوْ كَانَ فِيهِ**»(١).

ثمَّ ذكر مثلًا مُنَفِّرًا عن الغيبة، فقال: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ شبَّه أكل لحمه ميتًا، المكروه للنُّفوس غاية الكراهة، باغتيابه، فكما أنَّكم تكرهون أكل لحمه، وخصوصًا إذا كان ميتًا، فاقدَ الرُّوح، فكذلك، فلتكرهوا غيبته، وأكل لحمه حيًّا»(٢).

ليحذر المؤمن من هذه الظُّنون والأوهام الَّتِي أفسدت في حياة النَّاس كثيرًا ونخَرت في أُخُوَّتهم وعلاقاتهم وأوجدت بينهم من العداوات والبغضاء ما لا يعلمه إلَّا الله سبحانه، وليعامل غيره بما يحب أن يعامل به؛ فإنَّ المؤمن يحبُّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه.

ولا يضرُّ المسلم إذا هجمت على قلبه ظنونٌ ما لم يتكلَّم بها ويبدها، قال سفيان الثَّوريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**الظَّنُّ ظَنَّانِ: فَظَنٌّ إِثْمٌ، وَظَنٌّ لَيْسَ بِإِثْمٍ، فَأَمَّا الظَّنُّ الَّذِي هُوَ إِثْمٌ فَالَّذِي يَظُنُّ ظَنًّا وَيَتَكَلَّمُ بِهِ، وَأَمَّا الظَّنُّ الَّذِي لَيْسَ بِإِثْمٍ فَالَّذِي**

---

(١) تيسير الكريم الرَّحمن (ص٨٠١).

(٢) رواه التِّرمذيُّ في سننه تحت حديث (١٩٨٨).

يَظُنُّ وَلاَ يَتَكَلَّمُ بِهِ»[١].

وعليه في مثل هذا المقام أن يُذَكِّر نفسه بحقوق المسلم عليه ويكثر من الدُّعاء له بخير؛ فإنَّ هذا يصرف عنه تسلُّط الشَّيطان عليه بمثل تلك الظُّنون.

قال ابن قدامة المقدسيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «متى خطر لك خاطر سوء على مسلم، فينبغي أن تزيد في مراعاته وتدعو له بالخير، فإنَّ ذلك يغيظ الشَّيطان ويدفعه عنك، فلا يلقي إليك خاطر السُّوء خيفة من اشتغالك بالدُّعاء والمراعاة. وإذا تحقَّقت هفوة مسلم، فانصحه في السِّرِّ. واعلم أنَّ من ثمرات سوء الظَّنِّ التَّجسُّس، فإنَّ القلب لا يقنع بالظَّنِّ، بل يطلب التَّحقيق فيشتغل بالتَّجسُّس، وذلك منهيٌّ عنه؛ لأنَّه يوصل إلى هتك ستر المسلم، ولو لم ينكشف لك، كان قلبك أسلم للمسلم»[٢].

ثمَّ إنَّ الغيرة قد تدخل المرء في ظنون لا أساس له، ولا يسلم من ذلك حتَّى الصُّلحاء الأخيار، فينبغي للمسلم إذا ظنَّ ألَّا يُحَقِّق، وعليه أن يكره ذلك من نفسه، ولا يضرُّه ذلك ما لم يَعْتَدِ به يدًا أو لسانًا. ولا ينبغي للمرأة على وجه الخصوص أن تغلبها الغيرة فتشقى وتسيء وتظلم.

وليتفكَّر المسلم في هذا المقام كم من الشُّرور والمظالم تترتَّب على

---

(١) انظر: مختصر منهاج القاصدين (ص١٧٢).

(٢) رواه .

إعمال الظَّنِّ السَّيِّء من عداوات وخصومات وقطيعة، لا مستند لها غير سوء الظَّنِّ واتِّهام السَّرائر جزافًا.

عن أبي حازم سلمة بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «لَا تُعَادِيَنَّ رَجُلًا وَلَا تُنَاصِبَنَّهُ حَتَّى تَنْظُرَ إِلَى سَرِيرَتِهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فَإِنْ تَكُنْ لَهُ سَرِيرَةٌ حَسَنَةٌ؛ فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمْ يَكُنْ مُخْذِلَهُ بِعَدَاوَتِكَ لَهُ، وَإِنْ كَانَتْ لَهُ سَرِيرَةٌ رَدِيَّةٌ؛ فَقَدْ كَفَاكَ مَسَاوِئَهُ، فَلَوْ أَرَدْتَ أَنْ تَعْمَلَ بِهِ أَكْثَرَ مِنْ مَعَاصِي اللهِ لَمْ تَقْدِرْ»[(١)].

وما أجمل الشَّأن بالمسلم أن يجاهد نفسه على التَّمتُّع بالأخلاق الفاضلة والآداب الكاملة من هدايات هذه الشَّريعة وتوجيهاتها العظيمة الَّتِي تكفُل للنَّاس في حياتهم راحةً وأمنًا وطمأنينةً وقوَّةً في المحبَّة والصَّفاء والإخاء، بل هذا متأكِّدٌ على كلِّ مسلم أن يرعى هذه الحقوق والآداب تجاه إخوانه المسلمين إبقاءً لِأُخُوَّة الإيمان ورابطةِ الدِّين.

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يحفظ علينا أخوَّتنا وأمْننا وإيماننا، وأن يصلح لنا شأننا كلَّه، إنَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى سميع الدُّعاء، وصلَّى الله وسلَّم على عبده ورسوله نبيِّنا محمَّد وآله وصحبه أجمعين.

---

(١) رواه الدِّينوريُّ في المجالسة وجواهر العلم (١١٠٠).